فتح المكسيك

تركنا كورتس في الجزء الماضي وهو يستعدّ للزحف على عاصمة المكسيك فلما تمّ استعدادهُ زحف برجالهِ وهم اربع مئة من المشاة وخمسة عشر من الفرسان واخذ معهُ سبعة مدافع واعطاهُ امير سمبوالا ١٣٠٠ محارب و ١٠٠٠ حمّال واخذ اربعين من رؤساء البلاد لكي يرشدوهُ في الطريق ويشيروا على اهالي البلاد بمسالمتهِ. وترك في مدينة فراكروس رجلاً يعتمد عليهِ من خواصهِ مع حامية من الاسبانيين. وخطب في رجالهِ قبل ان شرعوا في الزحف خطبة بليغة شبههم فيها بالرومانيين القدماء الذين دوّخوا المسكونة وعمّروها حتى اذا اتم خطبتهُ صرخوا قائلين لك علينا الطاعة التامة وسنبقى معك في السرّاء والضرّاء ولما قالوا ذلك ودّع امير سمبوالا ورجالهُ وسار وكان ذلك في السادس عشر من اغسطس سنة ١٥١٩

مضى اليوم الاول وهم في ارض القانلاً والكاكو والقرمز ارض الطيوب والافاوية ارض الاثمار والازهار والصيد والقنص حيث ارّج النسيم يعطر الارجاء وتزاويق الطيور توشي الفضاء. وبلغوا مدينة زَلَبا في اليوم التالي ومنها العقار الذي سُمّي باسمها (جلَبا) فاطلّوا على بلاد واسعة المدى كثيرة الدساكر والقرى تكتنفها الرياض والغياض وتتخللها الانهار والغدران

وفي اليوم الرابع وصلوا الى مدينة حصينة مبنية على صخر شاهق فاضافهم اهلها ورحّبوا بهم وقاموا في اليوم التالي وساروا في وادٍ ضيق وعصفت عليهم رياح باردة من الجبال المجاورة معها مطر وثلج فكاد البرد يهرأهم لكن ثيابهم المحشوّة بالقطن وقتهم منهُ واما الهنود الذين معهم فمات كثيرون منهم من شدّة البرد وبعد ثلاثة ايام انفسحت امامهم البلاد واعتدل الهواء وكانوا قد علوا سبعة آلاف قدم عن سطح البحر فرأوا حقولاً كثيرة الزرع يحيط بها الصبر وتكثر فيها الذرة ووصلوا بغتةً الى مدينة كبيرة اكبر من سمبوالا واكثر منها سكاناً فيها ثلاثة عشر هيكلاً كبيرًا ولما رأى كورتس اميرها سأله هل انت من الخاضعين لمنتزوما فاجابهُ متعجبًا ومَن في الدنيا ليس خاضعًا لهُ. فقال كورتس انا لست من الخاضعين لهُ ثم بيّن لهُ الغرض الذي جاء لاجلهِ وقال اني خاضع لملك يخضع لهُ ملوك كثيرة كلٌّ منهم مثل منتزوما. فجعل هذا الامير يطنب في عظمة مولاهُ وقال انهُ يخضع لهُ ثلاثون اميرًا عند كل منهم مئة الف مقاتل يؤدّون اليهِ الجزية وجنودهُ كثيرة تاسر اكثر من عشرين الف اسير كل سنة ليقدّموا ذبائح لمعبوداتهِ. وعاصمتهُ في بحيرة في وسط وادٍ كبير والبحيرة محوطة بسفنهِ ويوصل اليها على جسر طولهُ عدة اميال بعضهُ من الخشب يرفع فلا يعود الوصول اليها ممكناً

وطلب منهُ كورتس ان يعطيهُ شيئًا من الذهب الذي عندهُ ليرسلهُ الى ملك اسبانيا هدية فقال اني لا استطيع ما لم يأمرني منتزوما فان امرني فانا وما املك بين يديك

وعجب الاهالي من خيل الاسبانيين وكلابهم وملابسهم وجعلت مريانا تطنب في بسالتهم ومهارتهم وما نالهم من الاكرام من منتزوما نفسهِ فاثَّر ذلك فيهم واهدى اميرهم الى كورتس بعض الحلي والجواري واراد كورتس ان يقنعهُ ليقلع عن عبادتهِ الوثنية ويعتنق الديانة المسيحية فلم يرَ منهُ اذنًا صاغية واراد ان يأمر رجالهُ لكي يفعلوا هنا ما فعلوا في سمبوالا ولو حاول ذلك لاوقع بهم الاهالي لكن القس الذي معهُ ادرك بفطنتهِ ما تأول اليهِ هذه الغيرة فنهاهُ عن ان يفعل في هذه المدينة ما فعلهُ في سمبوالا قائلاً ان نحن نصبنا الصليب هنا من غير ان تُعلِم الاهالي عرَّضناهُ للاهانة فتحمَّى قومهُ من المذكة

وهنا التبس الامر على كورتس لان اهل المدينة اشاروا عليهِ ان يسير في طريق شلولا قائلين ان سكانها اهل دعة ومسالمة . وكان اهل سمبوالا قد اشاروا عليهِ ان لا يسير في بلاد شلولا لان اهاليها خوَنة خدَّاعون بل في طريق تلسكالا الجمهورية المستقلة لان اهاليها كرام الاخلاق يترفَّعون عن الخيانة كما انهم ابطال بواسل . واخيرًا اختار طريق تلسكالا وارسل الى اهاليها وفدًا من اهالي سمبوالا يستبيحهم المرور في بلادهم وبعث مع الوفد هدية قليلة من الجوخ الاحمر وسيفًا وقوسًا وكتب اليهم يخبرهم انهُ معجب ببسالتهم وبمقاومتهم لملك المكسيك الذي جاء لاذلالهِ وكان يعلم ان الاهالي يعجزون عن قراءة هذه الرسالة ولكنهُ اراد ان يظهر لهم انهُ بالغ من العمران شأوًا ابعد من شأوهم واخبر الوفد بمعنى الرسالة حتى لا تفوت فائدتها

وبقي في المكان الذي كان فيهِ ثلاثة ايام بعد ذهاب الوفد ثم سار برجالهِ وراءهُ وهم في انتظام كانهم سائرون الى القتال وهذا كان دأبهم دائمًا في الحل والترحال . ولم يجدُّوا السير لانهم كانوا ينتظرون عود الوفد قبل الدخول في بلاد تلسكالا وبينما هم سائرون على هذا النمط وصلوا الى سور منيع ارتفاعهُ عشر اقدام وعرضهُ عشرون قدمًا ولهُ مترسة يقف وراءها المقاتلون وليس لهُ الاَّ باب واحد في وسطهِ يدور فيهِ الداخل بين سورين كنصفي دائرة احدهما معطوف على الآخر والطريق بينهما عشر خطوات لا غير والسائر فيهِ يكون تحت رحمة الذين على السور وطول السور اكثر من ستة اميال ويتصل من طرفيهِ بجبلين شاهقين لا يمكن الارتقاء اليهما وحجارتهُ كبيرة ضخمة محكمة البناء وهو الحد الفاصل بين بلاد تلسكالا وبلاد المكسيك فلما وصلوا اليهِ وقفوا مبهوتين وقالوا في نفوسهم ان وراء السور امَّة قوية مثلهُ الاَّ ان الباب كان مفتوحًا ولم يكن هناك احد من الحامية فعبروهُ آمنين ووطئوا ارض الجمهورية

واهالي تلسكالا من قبائل الازتك نزلوا البلاد في اواخر القرن الثاني عشر وجعلوا مقرّهم على السواحل الغربيّة من بحيرة تزكوكو واشتدّت الخصومات بينهم وبين القبائل النازلة حولهم ونشبت الحروب فكان الفوز فيها لهم لكنهم ملّوا الاقامة في بلاد لم يروا فيها الاّ نيران الحرب فرحلوا منها وداروا حول مدينة شلولا ونزلوا في سفح جبال تلسكالا وهم اهل فلاحة وزراعة وحرب وجلاد وهناك اودية خصيبة ومعاقل حصينة فطابت لهم الاقامة فيها فزرعوا الارض وعمّروا المدن وشيّدوا الحصون . واقتسموا بعد حين الى اربعة اقسام لكل قسم امير خاص لكنهم بقوا متحالفين في السلم والحرب واقاموا لهم مجلس شورى مؤلفًا من امرائهم الاربعة والرؤساء الذين تحتهم وظلوا على ذلك الى حين دخل الاسبانيون بلادهم

وكان لهم غرام بالالعاب الرياضيّة والفعال الحربية فكانوا يجيزون رجال البأس الجوائز الحسان ويسيرون بابطالهم في مواكب عظيمة وينشدون الاناشيد في مدحهم وينصبون لهم الانصاب والتماثيل كانهم اهل رومية القدماء . وكذلك كان اكرامهم لمن نفع بلادهُ برأي حكيم او بتجارة رابحة

وكانت بلادهم كثيرة الخصب كما تقدّم واسمها يدلُّ عليها لان معنى تلسكالا في لغتهم بلاد الخبز وكانوا يتجرون بخيراتها مع البلدان المجاورة واتقنوا الصنائع المعروفة عندهم كالحياكة والصياغة والبناء وعمل الاسلحة

ولما عظم شأن الازتك ودانت لهم البلاد المجاورة كبُر عليهم ان تبقى جمهورية تلسكالا مستقلة عنهم غير خاضعة لهم فطلبوا من اهاليها دفع الجزية اسوةً بغيرهم من الامم المجاورة فقالوا اننا لم ندفع جزية لاحد لا نحن ولا اسلافنا ولن ندفعها ابد الدهر ونحتفظ باستقلالنا الذي ورثناهُ من آبائنا كما احتفظوا هم بهِ . فغزاهم ملك المكسيك واستعرت نيران الحرب فكان الفوز لهم ومن ثم رسخت العداوة بين هاتين الامتين وكثرت الحروب وصار التلسكاليون يربّون اطفالهم من المهد على بغض المكسيكيين ومقاطعتهم وكانت بلادهم حصينة من كل جهة الاّ من الجهة الشرقية حيث كان يوصل اليها من وادٍ كبير اتساعهُ ستة اميال فبنوا فيهِ السور المشار اليهِ آنفًا . وانضمّ اليهم شعب آخر كان معاديًا لاهالي المكسيك اسمهُ الاتومي فاقاموا منهُ الحامية على ذلك السور

ولما رقي منتزوما الى عرش الملك ودانت لهُ الامم وعاد رجالهُ بالاسرى والغنائم من كل بلاد وطئتها اقدامهم حدثتهُ نفسهُ ان يضرب جمهورية تلسكالا الضربة القاضية فبعث عليها جيشًا ضخمًا امَّر عليهِ ابنهُ فالتقوا بهِ وقتلوهُ واثخنوا في جيشهِ ولما بلغ منتزوما ذلك ارغى وازبد

وامر بتعبئة الجيوش من كل الاقاليم وسار بهم على بلاد تلسكالا فانهال عليها كالسيل العرم واضطرّ التلسكاليون ان يعتصموا في جبالهم ومعاقلهم ومرّت السنون وهم مفصولون عن الساحل وعن كل البلاد المجاورة لهم لا يصل اليهم شيء من الملح والكاكاو حتى فسدت اذواقهم ولم يعودوا يدخلون الملح في طعامهم وهذا كان شانهم حينما دخل الاسبانيون بلادهم

ولما دخل الاسبانيون بلاد المكسيك لم يوجس التلسكاليون شرًّا ولكن لما بعث اليهم كورتس يطلب منهم ان يسمحوا لهُ بالمرور في بلادهم استغربوا طلبهُ وجمعوا مجلس شوراهم واخذوا ينظرون في هذا الطلب فقال بعضهم ان الاسبانيين هم القوم الموعودون الذين يُنتظر مجيئهم حسبما تشير اليهِ التقاليد القديمة وسواء كانوا كذلك او لم يكونوا فهم اعداء للمكسيكيين وعدو عدونا صديقنا . وقال البعض الآخر ان هؤلاء الغرباء لا يمكن ان يكونوا اصدقاء لنا لان دينهم مخالف لديننا وحيثما مرُّوا كسَّروا الاصنام وخرَّبوا الهياكل ولا دليل على انهم معادون لمنتزوما بل هم مصادقون لهُ على ما يظهر لانهم رحَّبوا برسلهِ وقبلوا هديتهُ وارسلوا اليهِ هدية بدلاً منها

والقول الاخير كان قول امير كبير السن واسع الخبرة من الامراء الاربعة الذين لهم الرئاسة العامة ويقال انهُ كان قد ناهز المئة ولهُ ابن كان قائدًا على جيش كبير من التلسكاليين والاتومي وكان مرابطًا قرب التخوم الشرقية فاشار ابوهُ ان يهاجم الاسبانيين بجيشهِ فان فاز عليهم انتهى الاشكال وان فازوا عليهِ قال مجلس الامَّة ان القائد فعل ما فعل من تلقاء نفسهِ والامَّة غير مطالَبة بفعلهِ . فرضي باقي الامراء بهذا الرأي واشاروا بابقاء الوفد عندهم بحجة مساعدتهِ لهم في اقامة بعض الشعائر الدينية

وفي غضون ذلك وصل الاسبانيون الى السور فلم يجدوا الحامية عندهُ كما تقدَّم فدخلوا بابهُ واوغلوا في البلاد وكورتس في متدمتهم مع شرذمة من رجالهِ ولم يوغل طويلاً حتى لقيهُ جماعة من التلسكاليين وهم مسلحون بالسيوف والتروس فلما رأوهُ هربوا من وجههِ فناداهم فلم يقفوا فجدَّ وراءهم فزادوا عدوًا لكنهم لم يكونوا اسرع من الخيل فادركهم حالاً ولما رأوا منهُ ذلك داروا اليهِ واستأنفوا سيوفهم واخذوا يدافعون عن انفسهم ببسالة ومهارة ولم يكن الاَّ قليل حتى اقبل الوف من التلسكاليين وهم مغرّقون السهام وشاهرون السيوف ورآهم كورتس مقبلين فامر واحدًا من فرسانهِ ان يعود حالاً ويستحث بقية جنودهِ وشاغل التلسكاليين وهم يهجمون عليهِ هجمات صادقات ويحاولون نزع الرماح من ايدي رجالهِ وانزال الفرسان عن خيولهم فانزلوا فارسًا واثخنوهُ بالجراح حتى مات وقتلوا فرسين فكبر ذلك على كورتس لان الخيل عضدهُ الاكبر

وكان معتمداً على خوف الاسبانيين منها وتوهمهم انها مما لا يمكن مقابلتهُ والتغلُّب عليهِ فاذا علموا ان التلسكاليين قتلوا اثنين منها زالت رهبتها من نفوسهم . واقبل بقية رجال كورتس وانصارهُ حالاً واشتبك القتال وفعلت بنادقهم ومدافعهم فعلاً ذريعاً بالتلسكاليين فذعروا من صوت البارود وخارت عزائمهم لما رأوا القنابل تحصد رجالهم حصداً وتمزقهم اربا فجمعوا صفوفهم وارتدوا بنظام حربي وسرَّ الاسبانيون بذلك فلم يسيروا وراءهم بل مُوا شمتهم وساروا في طريقهم وبعد قليل التقوا برسولين من قبل الجمهورية ومعهما اثنان من الوفد الذي اوفدهُ كورتس اولاً ودنا الرسولان من كورتس وقالا ان ما حدث من هجوم الجنود على رجالهِ لم يكن برأي رجال الحكومة وانهم آسفون على ما جرى وسيقابلونهُ بالترحاب في عاصمتهم . فتظاهر بانهُ صدَّق قولهم وسار معهم الى ان بلغ نهراً يجري في وسط مرج نضر فنزل في المرج وانتشر رجالهُ في المزارع المجاورة ينتشون عن الطعام فوجدوا نوعاً من التين فجمعوهُ وحيوانات اليفة كالكلب فقبضوا عليها وذبحوها واكلوها

وكان الاهالي الذين ساروا مع كورتس لنجدتهِ قد بلغوا ثلاثة آلاف نفس فقام في الصباح واستانف السير بعد ان امر رجالهُ ان لا ينفصل احد منهم عن رفاقهِ وان لا يتخلوا عن رماحهم بوجه من الوجوه . ولم يسيروا طويلاً حتى عاد الرسولان الآخران من الوفد الاول وقالا انهما فرَّا فراراً لانهما رأيا التلسكاليين عازمين على الفتك بهما وان جنودهم تجتمع الآن بسرعة لكي تمنع مرور الاسبانيين في البلاد . وبعد قليل التقوا بنحو الف من التلسكاليين وهم بالسلاح الكامل فامر كورتس الترجمان ان يقول لهم انهُ مسالم لهم لم يات لمحاربتهم بل للمرور في بلادهم فاجابوهُ برمي السهام والمزاريق فاغتاظ الاسبانيون من ذلك والمهم وقع السهام فهجموا عليهم ونشب القتال بين الفريقين وثبت التلسكاليون في مواقفهم مدة ثم ارتدوا بنظام حربي والاسبانيون وراءهم الى ان بلغوا مضيقاً من الارض كثير الحزون لا يمكن جر المدافع فيهِ فاسرعوا لكي يخلصوا منهُ واذا جانبا المضيق يموجان بجنود التلسكاليين وقدَّر كورتس ان عددهم لا يقل عن مئة الف مقاتل لكن غيرهُ قدَّر عددهم ثلاثين الفاً . ولما وقعت عينهم على الاسبانيين صرخوا صراخ الحرب وطبَّلوا بالطبول وهجموا عليهم كالسيل الجارف . فانضمَّ فرسان الاسبانيين بعضهم الى بعض حتى صاروا كالبناء المرصوص وصرخ فيهم كورتس يحمسهم ويشدد عزائمهم فاندفعوا على التلسكاليين بضرب صادق وطعن خارق والتلسكاليون لا يتوخون قتل الاسبانيين بل آخذهم اسرى ليقربوهم ضحايا الى معبوداتهم ولولا ذلك ما ابقوا على احد منهم فانزلوا فارساً عن فرسهِ وقطعوا الفرس اربا وحالوا اخذ الفارس حيّاً فحاول

البطريرك بطرس الجريجيري

مستعارة من ادارة جريدة الاخلاص

عشرة من رفاقهِ تخليصهُ من يدهم وفازوا بذلك بعد ان اثخنتهم الجراح وهو نفسهُ كان قد جرح جراحاً بالغة فمات منها في اليوم التالي وقطع التلكاليون حصانهُ اربًا كما تقدَّم وارسلوا قطعهُ الى تلكالا . وفعل الاهالي الذين كانوا مع كورتس فعال الابطال لانهم قالوا اننا مقتولون على كل حال اذا كان الفوز للتلكاليين. وظل الاسبانيون يقتحمون غمرات الردى الى ان خرجوا من المضيق فانفسح لهم ولبنادقهم ومدافعهم المجال . ولما سمع التلكاليون صوت المدافع والبنادق ورأوا الدخان يخرج من افواهها والموت الاحمر يقذف منها ارتاعوا وتشوش نظامهم وزادهم تشويشاً اضطرارهم الى حمل كل قتيل وجريح من رجالهم على ما تقتضيهِ شرائع بلادهم . وقُتل ثمانية من كبار قوادهم ولما رأى ذلك قائدهم الاعظم وهو ابن الرئيس الشيخ الذي تقدمت الاشارة اليهِ امر رجالهُ بالرجوع القهقرى فرجعوا رويدًا رويدًا حسب نظامهم الحربي واكتفى كورتس بذلك فلم يجدَّ في اثرهم بل جمع جرحاهُ وسار بهم الهوينا الى ان بلغ اكمة تشرف على ما حولها فنزل فيها . وقد قام في نفسهِ ان التلكاليين ابطال بواسل لا يصطلى لهم بنار ولا بدَّ لهُ من محالفتهم لانهم يكونون اكبر عضد لهُ في فتح بلاد المكسيك ونقويض دعائم ملكها

البطريرك بطرس الجريجيري

اذا ذُكر رجال المشرق الذين ارتقوا بجدهم حتى بلغوا اعلى منصب بين اقرانهم ووصلوا اليهِ بالانتخاب لا بالصنيعة وافادوا ابناء وطنهم قبل وصولهم اليهِ وبعدهُ فغبطة البطريرك بطرس الجريجيري في مقدمتهم . وقد عرفناهُ قسًّا ومطرانًا وبطريركًا ولنا معهُ احاديث مستفيضة لم يخرج فيها عن مصلحة طائفتهِ كأن لا غرَض لهُ من الحياة سواها

ولد في مدينة زحلة بجبل لبنان سنة ١٨٤١ ودرس فيها وفي مدرسة اليسوعيين في غزير وسيم قسًّا سنة ١٨٦٢ وجُعل مدرّسًا في المدرسة البطريركية في بيروت سنة ١٨٦٦ ثم أُسندت ادارتها اليهِ سنة ١٨٦٩ فعكف على درس العربية والفرنسوية وزادت رغبتهُ في تلقي العلوم فقصد مدينة بلوى من اعمال فرنسا سنة ١٨٧٤ ودخل مدرستها الكهنوتية الكبرى ودرس فيها الفلسفة واللاهوت ومبادئ اللغة اليونانية واللاتينية واتقن درس الفرنسوية حتى صار يستطيع القاء الخطب فيها فطاف في انحاء فرنسا وكان يعلم ان الحاجة ماسَّة في بلادهِ الى المدارس والى ما يقوم بنفقاتها فاقنع المحسنين بكلامهِ وخطبهِ حتى مدُّوا اليهِ يد المساعدة فعاد الى سورية سنة ١٨٧٨ وجعل ينشىء المدارس فيها فانشأ ٤٢ مدرسة للصبيان والبنات كان فيها ٥٦